التواضع الاصطلاحي وأثره في استقلالية العلوم العربية

الطالب: عبد القادر بن بوفلجة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة تلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم

لكلّ علم اصطلاحه الخاصّ ونشأة العلوم إنما تكون باستقلاليتها بمصطلحاتها الخاصّة، أو تلجأ إلى استعارتها من علم آخر. والاصطلاح ينشأ من دلالة الألفاظ ودلالة الألفاظ قد تكون من أجل **إيراد المعنى** كدلالة الفاعل عند الاستعمال العُرفي أو الكوني، أو الاستعمال اللغوي، أو الاستعمال الفلسفي كما سيأتي. أو من **أجل مناسبة** كلفظ الصيام – وهو الإمساك– عند حلول شهر رمضان فهي مناسبة دينية، وهو الإمساك عن الأكل والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها وفي موقف من المواقف يمسك الإنسان عن الكلام فيكون صائما عن الكلام. أو **لتخصيصه لسياق** معين كتخصيص لفظ معين في سياق معيّن لا يصحّ فهمه إلاّ من ذلك السياق بعينه، كلفظ ضرب يتعدّد معناه لا يصحّ إلا بإبراز السياق الذي وضع فيه، كضربتُ الولد لا يفهم منه إلا ذلك التصرّف المعروف من الإنسان، وضربتُ في الأرض لا يفهم منه إلاّ معنى السّفر.

والعلوم العربية نشأت ككلّ العلوم بالتدرج واستقراء الفروع والتفاصيل، وإذا تأملنا العلوم الشرعية كالفقه وأصوله والحديث وعلومه، نجدها عربية بحتة لأنها نابعة من فروع الفقه والحديث، لأن الكم الهائل من المصطلحات اجتمع من تراكم زمني، فعند سرد أبواب الفقه مثل الطهارة

والصيام والزكاة والحج والجهاد والنكاح والوقف والإعارة والجعالة والمساقاة والمزارعة، وهلمّ جرّا، أصبحت هذه الأبواب مصطلحات خاصّة بهذا العلم، استقلّت من أجوبة لما "كان الناس يسألون عنه الفقهاء في مسائل الحياة العَمَلية، ثمّ تجمع هذه الأجوبة من قبل أصحابها أو من قبل آخرين وتنظّم وترتب حسب أبواب الفقه وتكتب عادة على شكل سؤال وجواب" [1] أمّا مصطلحات علم أصول الفقه مثل الأمر والنهي والواجب والمحرّم والمستحبّ والجائز والعام والخاص والمطلق والمُقيّد والتقليد والاجتهاد، فهي تُعدّ بحوث لغوية من باب أولى، استعملت في مفاهيم خاصّة تتعلّق بفهم نصوص دينية، تدرجح تأليفها في مصنفّات خاصة بدءا من مصنف"الرسالة" للإمام الشافعي ت 204هـ إلى أن تحولت إلى كتب مغلقة اهتمت بما يُسمّى بعلم الكلام، فكانت كتبا عصيّة الفهم وصعبة المِراس بعد ذلك.

وأهمّ العلوم العربية وأولها نشأة النحو، فقد كان قيامه على أساس صوتي فيزيائي، وتواترت الأخبار في كيفية ظهور علم النحو في كيفية التراجم والتاريخ، في رواية أبي الأسود الدّؤلي عندما أمر بكتابة النقاط على الحروف والرواية تقول: "أن أبا الأسود جاء إلى زياد فقال: ابغني كاتبا يفهم عنّي ما أقول، فجيء برجل من عبد قيس فلم يرض فهمه، فأُتي برجل من قريش، فقال له: إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه وإذا ضممتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرتُ فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئا من ذلك غُنّة فاجعل النقطة نقطتين ، ففعل." [2] والمهمّ في هذه الحادثة هو استعمال ألفاظ أصبحت مصطلحات مهمةّ تعكس روحها العربية وتتمثل في الفتح والضمّ والكسر، وتغيّر شكلها

لا حقا من النَّقْط إلى الشكل المعروف اليوم، وهي على الترتيب الفتحة والضمّة والكسرة، ممّا يؤكّد على عربية التسمية بالاشتقاق، "فالوضع بالاشتقاق من أساليب العرب، كما سموّا الفرس الأسود بالأدهم والأحمر بالكُمَيْت، ولم يسمّوا الثوب الأسود والأحمر أو غيره من الأشياء بهذه التسمية، مع تحقق سبب التسمية فيها" [3] فالتسمية تكون بالتشبيه في المعاني لا في الحقائق، فهذه المسمّيات انتقلت إلى اصطلاحات وهي أسماء تدلّ على معاني مثل تشبيه معنى الكسر والضمّ والفتح في اللغة بحقيقته الفيزيائية، فهي "استعارة تبعية كالحروف والفعل واسم الفعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل وأسماء الزمان والمكان والآلة، وإنما كانت تبعية فيها لأن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيه يقتضي كون المشبه موصوفا بوجه الشبه أو يكون مشاركا المشبه به في وجه الشبه، وإنما تصلح للموصوفية الحقائق دون الحروف وهو ظاهر ورود معاني الفعال والصفات المشتقة لكونها متجدّدة غير متقرّرة بواسطة دخول الزمان فيها أو عروضها له. "[4]

واستعمال المصطلحات كان من قبيل الاستعمال اللغوي في الفنون والعلوم، و من باب الحاجة إليها، فهل كانت تستعمل لحقيقتها أم من باب المجاز؟ لقد كان الجدل قائما عند علماء اللغة في تعريف المجاز هل هو حقيقة لغوية أم منقول، على أن أكثر علماء اللغة يقولون بمجاز اللغة، بل إن ابن جني ت392هـ يقول: "أن هذه اللغة أكثرها جارٍ على المجاز، وقلّما يخرج الشيء منها على الحقيقة."[5] ونجدها تنحصر-عند علماء الأصول- في الأقسام الأربعة: "فاللفظ إمّا أن يبقى على أصل وضعه، أو يغيَّر عنه، فإن غُيِّر فلا بدّ أن يكون ذلك التغيير من قِبل الشرع، أو من قِبل عُرف الاستعمال، أم من قبل استعمال اللفظ في غير موضعه لعلاقةٍ بقرينةٍ، فالأول

الوضعية، والثاني الشرعية، والثالث العرفية، والرابع المجاز. "[6] فليس في هذه العلوم إلا تجديد الوضع وليس أصل الوضع لأنها عربية بحتة، مثل الفاعل والمفعول والتابع والنعت والصفة والبدل والتوكيد وغيرها كلّها ألفاظ واحدة تتعددّ لمناسبة الوضع فيكون اللفظ قدرا مشتركا في مفاهيم خاصّة تابعة لمقاصد وضعية معيّنة، فالفاعل أصله في اللغة لمن فعل الفعل فيقال في الاستفسار عن من فعل أي فعل أو حدث: من الفاعل فيقال فلان، أو الجهة الفلانية، و قد يكون غير عاقل. أمّا من الناحية المقصودة في علم النحو فيطلق على الاسم لا على الذّات، وصفته الرفع بالضمة في شكله الكتابي، بينما في حقيقة ذاته يكون الفاعل مثلا في وصفه رجل يسمى فلان ويلبس كذا من الملابس وألوانها، وينعت بصفات أخرى. فالشاهد أن مصطلح الفاعل انتقل من حقيقة كونية إلى حقيقة علمية لغوية على حسب التفكير العربي، وقد يكون له مفهوم آخر في علم آخر كالفلسفة يريدون به الخالق، فيكون حقيقة علمية فلسفية. والقدر المشترك بين الثلاثة هو إطلاق لفظ الفاعل على من تسبّب بالفعل، لكن الماهية والقصد تختلف بينها وتسمّى بالحقيقة، قد تكون لغوية أو عُرفية تابعة لجهة الاستعمال سواء عند أرباب العلوم أو أرباب القوانين والشرائع.

والمستند في كلّ ما تقدّم يتبيّن لنا أن الاصطلاح العربي لجميع العلوم العربية والإسلامية هو اصطلاح خالص، ينبع من فكر عربي وإسلامي خالص، لكونه ينمو في أحضانه فيستقرّ في علم مستقر، لم يتأثّر بفكر خارجي خاصّة النحو العربي الذي كثر الكلام عنه بالقول بتأثّره بالفكر اليوناني، "فالمصطلحات الأرسطية مصطلحات منطقية أو صورية جافّة تقوم على الأسباب والنتائج، وهي ناتجة عن بذخ فلسفي وفكري طال أمده وجدله

لدى اليونان."[7] ولذلك فإن الفكر اليوناني الذي استعمل اصطلا حاته الخاصّة به، استعمل اللسان الأثيني أو اللاتيني، وهو بدوره لّما تُرجم إلى العربية فهو يعكس الفكر المنطقي العقلي لا اللغوي، والفرق واضح بين الفكر واللغة. والمنطق عند العرب من العلوم الدخيلة عند العرب برز لّما كثر الجدال في أمور عقائدية بامتياز وليست لغوية، ولكن اللغة أصبحت ميدان الصراع بين الفرق الإسلامية لّما حاول كل فريق منهم استعمال اللغة لتوجيه فكره، وليس العكس. والمصطلح النحوي كثيرا ما حاول المتأخرون إقحام تعريفاته وحدوده في المنطق، ولذلك كثر الكلام بتأثر النحو العربي بالمنطق الأرسطي، ولكن المفهوم النحوي لايزال سليما مادام اصطلاحاته قائمة كما نشأت أول مرّة، لأن" المصطلح النحوي أصل والمفاهيم النحوية فروع وأنواع، و تتنوع المفاهيم النحوية بتنوع الصفات والإضافات التي تلحق بالمصطلح وتعدّد أساليب مستعملي اللغة العربية وطرق استعمالهمإياها."[8] فإذا كان معنى الاصطلاح في اللغة هو الاتفاق، فالاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية والأصلية، والمصطلحات تمرّ في مراحل من التهذيب والتطور حتى تستقرّ على صيغة ثابتة لدى المشتغلين في علم من العلوم، وهذا ما نلاحظه في المصطلح النحوي، خاصّة عند سيبويه في طول عنوانات الأبواب؛ حيث يمثل مرحلة تطورية غير ناضجة من حياة المصطلح يمتزج فيها مفهوم المصطلح للفكرة النحوية مع حدودها أو تعريفها[9].

والخلاصة هي أن العلوم العربية نشأت بديهة من محيطها الفكري، واستعملت مصطلحاتها من طبيعة لغتها التوليدية، وإنما جاءت مصطلحات

من علوم أخرى لاحقا لتضفي عليها بعض المفاهيم مثل علم الكلام، والمنطق والفلسفة التي ترجع في أصولها إلى العلوم اليونانية.

تتميز المصطلحات العربية بالاشتقاق اللغوي النابع من صميم الفكر والمعنى العربي، وأهم مايرد عليه هو مفهوم العلّة أوالعامل، الذي تأثر بالفكر الفقهي الإسلامي، والكلام فيه يشقّ الطريق بين التعليل الفلسفي والفكر الفقهي حينها تظهر الفرق بين المصطلحات العربية والأجنبية.

تنوّع الفكر العربي كالفكر القرآني عند علماء التفسير، والفكر الأصولي عند علماء الأصول والمقاصد، والحديثي عند علماء الحديث، والنحوي والفقهي عند النحاة والفقهاء يجعل من المصطلح في كلّ علم دليلا على وسع العربية لا حتواء مفاهيم متنوعة قائمة بذانها غير متأثرة بما يحيط بها، فالخاصّية الاستعمالية ضرورة وجدت من أجل خدمة ذلك العلم بعينه، ولذلك استقلّ كل علم باصطلاحاته الخاصّة.

مراجع البحث

1- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ط6، د ت ط، ص151 .

2- مراتب النحويين، أبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د ت ط، ص33

3- ينظر أصول التشريع الإسلامي، علي حسب الله، ط3،1383هـ-1964م ص174.

4- الدرّ النضيد لمجموعة ابن الحفيد، سيف الدين بن يحيى بن سعد الدين بن عمر التفتازاني، دار الكتاب العربي، بيروت، طبع1400هـ- 1980م، ص313.

5- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ط2،1424هـ 2003م، ج2، ص452

6- مذكّرة أصول الفقه على روضة الناظر، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق سامي العربي، دار اليقين، ط1/ 1419هـ –1999م، ص314

7- في رحاب العربية، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر2007م

8- النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم، محمد سويرتي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء2007 ص 13.

9- ينظر: في المصطلح الإسلامي، إبراهيم السامرائي، دار الحداثة، بيروت، ط1،1990م، ص167